الإمام عليّ بن أبي طالب (ع)
والثقافة الإسلامية

الشيخ الدكتور يوسف عمرو

أ ـ الحديث عن عليٍّ (ع):

الحديث عن أميرِ المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع)، هو حديثٌ عن الإيمان بالله تعالى وَالمُثل العُليا للأخلاق، والتَضحيةِ والفداء، وحديث عن النُبل والفروسية والتصوف والزُهد في الدُنيا وزينتها، وحديث عن الفقه والطهارة والإيثار، وحديثٌ عن الرحمةِ والتسامح والنصيحة لعباد الله، وحديثٌ عن النخوة، والبُطولة، والشجاعة، والإقدام، وحديثٌ عن الفصاحة، والبلاغة، وشتى فُنون الأدبِ وضروبه، وحديثٌ عن العلوم والفنون التي غرس شجرتها وافترع غُصونها وكان مرجعها الأوّل في تاريخِ الإسلام.

وإن ابن أبي الحديد المعتزلي الذي عاش في بغداد في القرن السابع الهجريِّ أرجعَ الكثيرَ من العلوم والفنون الإسلاميّةِ المعروفةِ في بغداد ـ «وكانت بغداد آنذاك حاضرة العالم الإسلامي والعاصمة الثقافيّة والحضاريّة للعالم» ـ أرجعها إليه (ع) من خلال الطُرق والأسانيد المعتبرة عند أهل الدراية والحديث. إذ أرجع إليه (ع) علوم النحو، والفصاحة، والبلاغة، والبيان، وعلوم الكلام عند المعتزلة، والشيعة، والأشاعرة، وعلوم الفقه والشريعة عند الشيعة الإماميّة، والشيعة الزيديّة، وعند المعتزلة، والمذاهب الأربعة المعروفة. وعلوم القرآن الكريم، والحديث، والدراية، وَطُرق التصوف، والفُتوة، وغيرها من علوم وأهمها الحكمة والفلسفة[1].

وفي أيامنا هذه نرى العلاّمة الفيزيائي الكبير الدكتور يوسف مروة في كتابه «العلوم الطبيعية في تُراث الإمام عليٍّ (ع)»، يضيفُ إلى تِلك العلوم علوماً أخرى سَبقَ إليها (ع) واستعملها قبل أربعة عشر قرناً، استعملها (ع) كأدلةٍ وقَرائِن في القَضاءِ ومن خلال مواقفه ومنهجه العلمي الفريد كالأدلةِ الجنائية المعْروفةِ في الطبِ الشرعيِّ، والرياضيات والفيزياءِ في مَسائل استنباطيّة أُخرى[2].

وقد أشار إلى ذلك رسول الله (ص) في أحاديثه الكثيرة عن عليٍّ (ع) طالباً من النّاس

الرجوع إليه، كما في قوله (ص): «أنا مدينةُ العِلمِ وعليٌّ بابها فمن أرادَ المدينة فَليأتِ الباب..»[٣].

وفي قوله (ص): «أنا دَارُ الحكمةِ، وعليٌّ بابها»[٤].

وفي قوله (ص): «رَحِم الله عليًّا اللّهم أدِر الحقَّ معه حيثُ دَار»[٥].

وفي قوله (ص): «يا عليُّ لك سبعَ خِصال لا يُحاجّك فيها أحدٌ يومَ القيامة»:

«أنت أوّلُ المؤمنين بالله إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأرأفهم بالرعيَّة، وأقسمهم بالسويّة، وأعلمهم بالقضيّة، وأعظمهم مزيّةً يومَ القيامة»[٦].

ب- مع ميخائيل نعيمة:

قام الأديب اللبناني ميخائيل نعيمة بكتابة مقدمة لموسوعة الأديب الأستاذ جورج جرداق: «الإمام عليٌّ صوت العدالة الإنسانيّة» في عام ١٩٥٨، أشار بها إلى مرجعية الإمام عليٍّ (ع) للحضارة العربيّة والإسلاميَّة.

ومما جاء في تعريفه لتلك الموسوعة عن الإمام (ع) قوله: «وهذا الكتاب الذي بين يديك خير شاهد على ما أقول، فهو مكرَّس لحياة عظيم من عظماء البشريَّة، أنبتته أرض عربية، ولكنها ما استأثرت به، وفجرَّ ينابيع مواهبه الإسلام، ولكنه ما كان للإسلام وحده، وإلاّ فكيف لحياته الفذَّة أن تلهب روح كاتب مسيحي في لبنان، وفي العام ١٩٥٦ يتصدى لها بالدرس والتمحيص والتحليل، ويتغنَّى تغنّي الشاعر المتيَّم بمفاتنها ومآثرها وبطولاتها؟

وبطولات الإمام ما اقتصرت يوماً على ميادين الحرب، فقد كان بطلاً في صفاء بصيرته، وطهارة وجدانه، وسحر بيانه، وعمق إنسانيته، وحرارة إيمانه، وسموّ دعته، ونصرته للمحروم والمظلوم من الحرام والظالم وتعبُّده للحق أينما تجلَّى له الحق. وهذه البطولات، ومهما تقادم بها العهد، لا تزال مقلعاً غنياً نعود إليه اليوم وفي كل يوم كلما اشتدَّ

بنا الوجد إلى بناء حياة صالحة، فاضلة..».

إلى أن يقول: «إنَّه ليستحيل على أي مؤرخ أو كاتب، مهما بلغ من الفطنة والعبقرية، أن يأتيك حتى في ألف صفحة بصورة كاملة لعظيم من عيار الإمام عليٍّ، ولحقبة حافلة بالأحداث الجسام كالحقبة التي عاشها. فالذي فكَّره وتأمّله، وقاله وعمله ذلك العملاق العربي بينه وبين نفسه وربّه لممَّا لم تسمعه أذن ولم تبصره عين. وهو أكثر بكثير مما عمله بيده أو أذاعه بلسانه وقلمه. وإذ ذاك فكل صورة نرسمها له هي صورة ناقصة لا محالة.. وقصارى ما نرجوه منها أن تنبض بالحياة»[٧].

ج ـ حقوق الإنسان:

وعندما أراد جورج جرداق أن يتكلّم عن عليٍّ (ع) تحت عنوان (الضمير العملاق) قدَّم بكلامه كلمة للكاتب اللبناني شبلي شميل حول مرجعية عليّ (ع) للعدالة وحقوق الإنسان حيث قال: «الإمام عليّ بن أبي طالب عظيم العظماء نسخة مفردة لم يرَ الشرق ولا الغرب صورة طبق الأصل عنها لا قديماً ولا حديثاً».

ثم شرح وأسهب حول أسلوب عليٍّ (ع) في العدالة وتطبيقه لها على نفسه وأهل بيته ومجتمعه، حيث لا نجد عظيماً خلال ألف وأربعمئة سنة قد حارب الظلم الذي صنعه الاستغلاليون من الحكام والأغنياء ورجال الدين، من تضليلهم لعقول النّاس، في استثمارهم للفقراء واحتكار مجهود النّاس لتثبيت سلطانهم على الأرض، حيث قرَّر عليّ بن أبي طالب الحقيقة التالية: «ما جاع فقير إلاّ بما مُتِّع به غنيّ». وقوله (ع): «ما رأيت نعمة موفورة إلاّ وإلى جانبها حق مضيّع».

ويكتب إلى أحد ولاّته قائلاً عن احتكار التجار والغبن الاجتماعي بين النّاس: «وذلك باب مضرّة للعامّة، وعيب على الولاّة، فأمنع من الاحتكار».

ثُمَّ قال: «هل عرفت إماماً لدين يوصي ولاّته بمثل هذا القول في النّاس: فإنهم إمَّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق. أعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه!.

هل عرفت صاحب سلطان تمرَّد على سلطانه لإقامة الحقِّ في الشعب، وصاحب ثروة أنكر منها إلاّ القرص الذي يمسك عليه الحياة، وما الحياة لديه إلاّ نفع إخوانه في الخلق... أمَّا الدنيا فَلتغرَّ سواه!».

كما قد سبق الإمام عليّ في كفاحه لاستغلال الحكام والأغنياء وبعض رجال الدين للفقراء والشعوب المستضعفة، في مواقفه ووصاياه وأوامره لولاّته بالعدالة وحقوق الإنسان من خلال سيرته الشريفة، حيث سبق رافاييل الإيطالي، وتولستوي الروسي، وفولتير الفرنسي، وغوته الألماني، إلى أن يقول: «هل عرفت من الخلق أميراً على زمانه ومكانه يطحن فيأكل ما يطحن خبزاً يابساً يكسره على ركبتيه، ويرقّع خفّه بيديه، ولا يكتنز من دُنياه كثيراً أو قليلاً على ما مرّ، لأن همّه ليس إلاّ أن يكون للمستضعف والمظلوم والفقير عدالة تنصفهم من المستغلين والمحتكرين ويمسك عليهم الحياةَ وكريم العيش، فما يعنيه أن يشبع ويرتوي وينام هانئاً وفي الأرض «ما لا طمع له في القرص» وفيها «بطونٌ غرثى وأكبادٌ حرّى» قائلاً، ويا لشرف القول: «أأقنع من نفسي بأن يقال أميرُ المؤمنين ولا أشاركهم مكارهَ الدهر؟» ولأنّ أقلَّ ما في هذه الدنيا شأناً هو خيرٌ عنده من ولاية النّاس إن لم يُقم حقاً ويُزهقْ باطلاً؟!.

هل عرفتَ، في موطن العدالة، عظيماً ما كان لأعلى حقّ ولو تألّب عليه الخلقُ في أقاليم الأرض جميعاً، وما كان عدوّه إلاّ على باطلٍ ولو ملأ السهلَ والجبل، لأن العدالة فيه ليست مذهباً مكتسباً، وإنْ أصبحتْ في نهجه مذهباً فيما بعد، وليست خطةً أوضحتها سياسة الدولة، وإنْ كان هذا الجانبُ من مفاهيمها لديه، وليست طريقاً يسلكها عن عمدٍ فتوصله من أهل المجتمع إلى مكان الصدارة، وإن هو سلَكها فأوصلته إلى قلوبِ المطيبين، بل لأنها في بنيانه الأخلاقي والأدبي عمل يتّحد بأصول، وطبعٌ لا يمكنه أن يجوز ذاته ليخرج عليها، حتى لكأنّ هذه العدالة مادةٌ رُكبَّ منها بُنيانه الجسماني نَفسُه في جملة ما رُكّب منه، فإذا هي دمٌ في دمه وروحٌ في روحه!

هل عرفتَ، في موطن الخصومات، عظيماً حاربه ذوو المنافع وفيهم نَفرٌ من ذوي قُرباه، وقاتلوه، فخذلتِ المفاهيمُ الإنسانيّةُ المنتصرين عليه لأنّه انتصار للحيلة والمساومة والائتمار وكسب الدنيا بسيفٍ ظالمٍ غاشم، ورفعتِ المنكسرَ لأن انكساره، في ضوء العقل والقلب، يتضمن جوهر الشهادة في سبيل كرامة الإنسان وحقوقه وما يتوق إليه من بلوغه العدالة والمساواة. وهكذا كان نصرُهم هزيمةً وانكسارُه انتصاراً عظيماً لقيمة الإنسان[٨]!

مع الأستاذ العقاد:

أفرد الأستاذ عباس العقّاد في كتابه: «عبقريّة الإمام عليّ» بحثاً خاصاً حول ثقافة الإمام (ع)، تكلّم فيه عن اختصاص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بلقب الإمام دون سواه من الصحابة والخلفاء إلى أن قال: «ولكن الإمامة يومئذٍ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية، ولا أن يتحيَّز بعسكر يقابله عسكر، وصفة تناوئها صفة، ولا أن يصبح رمزاً للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها.. فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس، ولكن الإمام بغير تعقيب ولا تذييل هو الإمام كلما وقع الاشتباه والالتباس...

وذاك هو عليٌّ بن أبي طالب، كما لقبَّهُ النّاس وجرى لقبه على الألسنة.. فعرفه الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة في الطرقات، بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف..

وخاصة أخرى من خواص الإمامة، ينفرد بها عليٌّ ولا يجاريه فيها إمام غيره، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلاميّة منذ وجدت في صدر الإسلام، فهو مَنشَأ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه، وندرت فرقة في الإسلام منذ نشأتها، لم يكن عليّ موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها، تقول فيه وتردّ على قائلين.

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة، وعلماء الأدب والبلاغة.. فهو أستاذ هؤلاء جميعاً بالسند الموصول...»[٩].

إلى أن قال في آخر بحثه: «وخلاصة ذلك كله، أنّ ثقافة الإمام هي ثقافة العلم المفرد والقمة العالية بين الجماهير في كل مقام.. وانما هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله، يداول بين القلم والسيف، ويتشابه في الجهاد بأسه وتقواه.. لأنّه بالبأس زاهد في الدنيا مُقبل على الله، وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله..

فهو فارس يتلاقى في الشجاعة دينه ودنياه، وهو عالم يتلاقى في الدين والدنيا بحثه ونجواه...»[١٠].

كما أثبت للإمام عليّ (ع) أعلميته في القضاء، وفي الكتاب، والسُنّة وفي مسائل رياضية تعتبر من أمهات مسائل الفرائض والإرث، وأعلميته في الحكمة، والبلاغة، والعلوم العسكرية. كما نفى عنه (ع) كتاب الجفر المتداول بين أيدي الصوفيّة والمنسوب إليه لتناقض ذلك مع سيرته (ع)، وموقفه من المنجمين وعلم التنجيم، كما أثبت له (ع) بعض القصائد والأبيات المنسوبة إليه، ونفى عنه غيرها من قصائد وشعر موضوع ومنسوب إليه لضعفه وركاكته.

هـ- كتاب الجفر أو تدوين السُنَّة:

في كتابي الموجز في علمي الدراية والحديث بيّنت أن أوّل من دوّن السُنّة من الصحابة هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع)، وقد كتبها (ع)، على جلود الماعز - أي على الجفر - ففي كتاب (ينابيع المودة) للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي قال: «أخرج الحموييني بسنده عن الباقر (ع) عن أبيه عن جده أمير المؤمنين (ع) قال: «قال رسول الله (ص): يا عليّ أكتب ما أملي عليك!

قلت: يا رسول الله أتخاف عليّ النسيان؟

قال: لا، وقد دعوت الله عزّ وجلّ، أن يجعلك حافظاً، ولكن أكتب لشركائك الأئمة من ولدك، بهم يُسقى الغيث لأمتي، وبهم يُستجاب دعاؤهم، وبهم يصرف الله عن الناس البلاء، وبهم تنزل الرحمة من السماء، وهذا أوّلهم، وأشار إلى الحسن (ع).

ثم قال: وهذا ثانيهم، وأشار إلى الحسين (ع).

قال: والأئمة من ولده».

ومما يدلُّ على أن أوّل من دوّن السُنّة وكتبها في عهد رسول الله (ص)، هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) عدة أمور:

أولاً: حديث صحيفة عليّ (ع) التي رواها أحمد بن حنبل (المتوفى في سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م)، والبخاري: محمد بن إسماعيل الجعفي (المتوفى سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م)، ومسلم ابن الحجاج: أبو الحسين القشيري النيسابوري (المتوفى سنة ٢٦١هـ/٨٧٥م)، وأصحاب السنن بألفاظ مُختلفة وبأنه كتبها عن رسول الله (ص).

ثانياً: ما حدث في أيام الإمام محمد بن علي الباقر (ع) المتوفى سنة ١١٤هـ فقد أخرج النجاشي: قيس بن عمرو الحارثي (المتوفى سنة ٦٦٠م) في رجاله عن محمد بن جعفر قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن سعيد، عن محمد بن أحمد بن الحسن عن عباد بن ثابت، عن أبي مريم عبد الغفار بن القاسم عن عذافر الصيرفيّ قال: كنت مع الحكم بن عيينة عند أبي جعفر (ع) فجعل يسأله، وكان أبو جعفر (ع)، له مُكرماً فاختلفا في شيء، فقال أبو جعفر (ع): يا بني قم، فأخرج كتاباً مُدرجاً، ففتحه وجعل ينظر حتى أخرج المسألة.

فقال أبو جعفر (ع): هذا خط عليّ (ع)، وإملاء رسول الله (ص)، وأقبل على الحكم وقال: يا أبا محمد، إذهب أنت وسلمة، وأبو المقدام حيث شئتم، يميناً وشمالاً، فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبريل (ع).

ثالثاً: ما جاء في مقدمة (الصحيفة السجادية)، وفي إسنادها إلى الشهيد يحيى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب

(ع)، من اعتراف الشهيد يحيى بن زيد: إنّ كُتب عليّ (ع)، هي عند ابن عمه جعفر بن محمد الصادق (ع) وهذا هو سبب علم جعفر بكيفية مصرع يحيى بن زيد في بلاد خراسان على أيدي الأمويين، كما جاء في السند الآنف الذكر[11].

و- الإمام عليّ والطب الحديث:

تكلّم الأستاذ نصري سلهب في كتابه: «في خُطى عليّ» عن ظواهر كثيرة في شخصيّة الإمام عليّ (ع)، وعن مواقفه وعن خسارة الإنسانيّة باستشهاده (ع)، كما تكلّم عن مجموعة خطبه ورسائله وكلماته التي جُمعت في نهج البلاغة حيث ذهب أنّها تصلح أن تكون دستوراً نموذجياً لكيفية إدارة الحكومات، كما تصلح أن تكون أيضاً نماذج للوصايا الأخلاقيّة التي يجب أن يقتدي بها الحكّام. إلى أن قال: «وقد يعجب الواحد منّا، اليوم في القرن العشرين، لإلمام عليّ بأمور تدخل في نطاق الطب، أو هي على الأقل، من مُعطيات علم النبات والأثمار وفوائدها الصحيّة»[12].

وقد عقبَّ على كلامه الأستاذ راجي أنور هيفا في كتابه: «الإمام عليّ (ع) في الفكر المسيحي المعاصر» قائلاً: «ولا ريب في أنّ هذا الكلام من المفكّر المسيحيّ الأستاذ (سلهب) لم يأت من فراغ ولم ينطلق فيه من منطلقٍ عاطفيّ بعيدٍ عن منطق العقل، وإنّما جاء هذا الكلام من ذاك المفكّر المسيحي مبنيًّا على دراسة شاملة لشخصيّة الإمام عليّ (ع) من كافة جوانبها وميادين الإبداع فيها.

ونحن إذ نُقلّبُ صفحات الكثير من الكتب التراثية والعلمية التي تتمحور حول العلوم الطبيّة في التاريخ الإسلاميّ، فإننا سنلاحظ أن الكثير منها يذخر بالكثير من الوصايا الطبيّة والصحيّة للإمام عليّ (ع)، واللافت للنظر في تلك الوصايا والنصائح الطبيّة هو أن تلك الوصايا والنصائح والإرشادات قد جاءت متطابقة مع أحدث المكتشفات الطبيّة في العصر الحديث»[13].

ثمّ أورد بعض كلماته وحكمه (ع)، ومن أراد الاستزادة في ذلك فليراجع السفر الذي أخرجه الأستاذ محسن عقيل تحت عنوان: «طب الإمام عليٍّ (ع)».

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٣ ـ مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

(٢) العلوم الطبيعيّة في تراث الإمام عليّ (ع)، للدكتور يوسف مروة ـ دار مكتبة الهلال ـ بيروت.

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم أبي عبد الله النيسابوري، ج٣، ص١٣٠ـ ١٣١.

(٤) ذخائر العقبى، للطبريّ، ص٧٧.

(٥) المستدرك على الصحيحين، للحاكم أبي عبد الله النيسابوري، ج٧٣ ص١٢٤.

(٦) ذخائر العقبى، للطبريٍّ، ص ٨٣.

(٧) الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة، للأستاذ جورج جرداق، ج١، ص٢١ـ ٢٢.

(٨) المصدر نفسه من ص٣٩ إلى ص٤٥ بتصرّف.

(٩) راجع عبقريّة الإمام عليّ، لعباس محمود العقّاد ـ المكتبة العصرية ـ صيدا.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٥١.

(١١) الموجز في علمي الدراية والحديث، للمصنف، ص٢٥ـ ٢٦ـ ٢٧.

(١٢) في خطى عليّ، لنصري سلهب، ص٢٥١.

(١٣) الإمام عليّ (ع) في الفكر المسيحي المعاصر، لراجي أنور هيفا، ص٤٩٢ـ ٤٩٣ـ ٤٩٤.